

# الإنسان الكامل عند ابن عربي

ساعد خميسي

إنَّ السلام يتجلى في الإنسان الكامل عند ابن عربي كما تتجلى فيه باقي أسماء الله الحسنى، لهذا فمبحث السلام عند ابن عربي هو جزء من مبحث الإنسان الذي تتحقق له السعادة المطلقة بتحقيقه لكماله.

## تعريف السلم لغة واصطلاحاً :

السلم لغة من السلام، والسلامة وتعني البراءة والعافية : وبهذا المعنى وردت في القرآن في مواضع عديدة منها قوله تعالى : «وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً». والسلام اسم الله تعالى وتعني سلامته من العيب والنقص ، والسلام تحية في الإسلام معناها سلمتم مني فاجعلوني اسلم منكم. كما أن هذه الكلمة تذكر في كل صلاة على الأقل خمس مرات (في التشهد وعند الخروج من الصلاة ...) (1).

من السلم والسلام جاءت كلمة الإسلام والتي تعني من أسلم فقد سلم والسلام هو الصلح Paix، وعند اللاهوتين هو النجاة من عذاب الجحيم وإدراك السعادة الأبدية (2) كما يعني عند الصوفية: تجرد النفس عن المحنة في الدارين (3).

هذه السعادة والتجرد عند المحنة، وتحقق العافية، إن هي إلا من الثمار التي يجنيها الإنسان الكامل ببلوغه لكماله، فمن هو هذا الإنسان وكيف يجني هذه الثمار ؟

لقد ترك ابن عربي (الشيخ الأكبر) إنتاجاً فكرياً ثرياً ثراء حضارته وثورته مصادر فلسفته الكثيرة المختلفة (شرقية قديمة، يونانية، مسيحية، يهودية...) ما زجا إياها بما أوصله عقله وكشفه من تأويل للقرآن والسنة النبوية، فخلص بهذا الشتات إلى فكر إنساني موحد، اعتبره حكمة شرعية أو شريعة حكيمة، الأخذ بنا صيتها إنسان كامل، حاكم ، عالم عارف، لأن «الحكم نتيجة الحكمة والعلم نتيجة المعرفة، فمن لا حكمة له، لا حكم له، ومن لا معرفة له لا علم له » (4). هذا الإنسان مسالم بعلمه وعمله لأنه تجلت فيه صفة السلام في اله قبل تجلي الألوهية فيه وما أدرك الكمال بغييب ونقص فيه، يسلم منه الإنسان وجميع الكائنات.

فمن هو هذا الإنسان ؟ وكيف يبلغ الكمال ليتحقق به السلام؟

يتضح لنا كمال الإنسان عند الشيخ الأكبر من خلال التعرض للمحاور التالية :

1- الإنسان ومكانته في العالم

2- علمه ومعارفه

3- قيمه الاخلاقية والجمالية

هذه المحاور الثلاثة مرتبطة ببعضها ومتكاملة الى درجة يصعب أحيانا التمييز بين المحور والآخر، فالجانب الأنطولوجي (الوجودي) هو واقعه وحقيقته، والمعرفي هو دوره إدراك واقعة وإدراك الاول (الحق) أما الجانب القيمي (الأكسيولوجي) فهو تجسيد للحقيقة الأنطولوجية وممارسة لمعارفه وعلموه.

1- الإنسان ومكانته في العالم :

إن الإنسان عند ابن عربي هو الغاية والغرض من الوجود بعد ان كان موجودا في خزائن الوجود (وجود بالقوة) خرج الى الفعل فكان زينة العالم وخليفة لله، وهما معا تجليا لأسمائه الحسنی المطالبة «بذواتها وجود العالم، فأوجد الله العالم جسدا مسوی، وجعل روحه آدم عليه السلام، واعني بآدم وجود العالم الإنساني ... ولهذا يقال في العالم أنه الإنسان الكبير ولكن بوجود الإنسان فيه» (5) هذا الكائن خلق على صورة الاله وجعله العين المقصودة من العالم وهو مركز الكون، بل هو «مجموع حقائق العالم كله. فإذا خاطبه [الله] فقد خاطب العالم كله، وخاطب أسماء كلها». (6) باعتباره جامع لحقائق العالم وهو روحه فإن الكون والله المكون فتح الوجود به فهو مفتاح الوجود : وخلاصة القول أن الحق واحد في الوجود، والإنسان واحد في الكون». (7).

إذا فالإنسان عند ابن عربي ليس مجرد مخلوق في عداد المخلوقات الكونية، بل وجوده سابق عن وجود العالم، ووجود هذا الأخير ما كان إلا به ومن أجله. لأنه خليفة الله في الأرض ، مختصر من الحضرة الالهية، فيه تتجلى أسماء الحسنی بتعددتها وتنوعها أكثر من أي مخلوق آخر يقول ابن عربي عن الإنسان مخاطبا إياه : «كنت كنزا مخفيا فإن أنصفت فهمت أن الإنسان هو الكون بأسره، من حيث هو ثمرته، وهو سره من حيث هو انطراده عنه، لأنه مرآة تحكي بتجلي الحق بالعالم بظهور أسمائه وصفاته». (8).

إن هذه الثنائية في وجود الحق ووجود الخلق، ممثلا في الإنسان روح العالم، تزول بتأويله للآية الكريمة التي تقول : «وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا». فالذي بينهما هو الإنسان الذي خلق منهما فلما كمل وضع بين السماء والأرض فهو حقه مادام ليس بباطل : والحق واحد ولهذا الواحد : علم ومعارف تكون على قدر كماله وعلى قدر ادراكه حقيقة ذلك.

علم الإنسان الكامل ومعارفه :

إن مكانة الإنسان في العالم (حق وخلق) تجعل له ناحيتين : ربوبية وعبودية» إدراكه للاولى فقط تجعله يدعي الألوهية ويصرح بها دون غيره من الكائنات كإدراكه لتجلي اسم «العريز»

وإدراكه للثانية (جانب الخلق) فقط تجعله ينزل بإنسانيته الى عبادة كائنات أدنى منه مرتبة وشرفا. : أما الإدراك الأول فعلم ناقص والثاني جهل مظلم : لهذا يقول الشيخ «ما أدعى أحد من العالم الربوبية إلا الإنسان لما فيه من القوة، وما أحكم أحد من العالم مقام العبودية في نفسها الإنسان فعبد الحجارة والجمادات التي هي أنزل الموجودات. فلا أعز الإنسان بربوبيته ولا أذل منه بعبوديته» (9) ذلك لأن الإنسان مخلوق من نور وظلمة، نور من عالم الروح وظلمة من عالم الطبيعة، فكلما ارتبط بالمادة غرق في غياهب الظلمات ولن يخرج منها إلا بالعلم والمعرفة لان العلم سراج منير : ينير له الطريق ليتجه نحو النور، نحو عالم الروح، الى حيث كما له أين يدرك ربه القائل عن لسان ابن عربي «ماخلفت لك الإدراكات إلا لتدركني» (10) وليدرك الإنسان الله عليه أن يدرك نفسه أولا، لأنه «من عرف نفسه فقد عرف ربه» (11) الادراك هنا لا حسي ولا عقلي بل كشفي بحيث يدرك الإنسان نفسه بعين ربه فيدرك ربه بعين ربه، هذا لا يعني أنه ينفي جميع المعارف الحسية والعقلية بل يعطي لها مجالاتها الخاصة دنوية في غالبها. أما ادراك حقيقة الحقائق فلا تتم إلا بالكشف وإدراك التجليات الالهية في النفس الإنسانية، لأنه ماثم إلا عبد ورب فإليه تصعد وإليك ينزل» (12) وذلك بالعلم الباقي وبزوال الجهل الفاني ، لأنه إذا وقع الكشف ارتفع الجهل وبقي العلم فإن العلم لا يرتفع لان وجوده حق والجهل يرتفع لأنه صورة وجود وليس بوجود، حقيقته عدم.

إذا حضر النور غابت الظلمة وإذا حضر العلم ارتفع الجهل لكن لا يتحقق السعادة إلا إذا كان العلم مصحوبا بإيمان فيكون نورا على نور، هذا الإيمان مشترك بين جميع الديانات، لان كل الانبياء نماذج للإنسان الكامل والإقتداء بهم قد يؤدي الى بلوغ الكمال، «غاية كل سالك مناسبة لطريقة الذي عليه سلك فمنهم من ينجي بلغته ومنهم من ينجي بغير لغته»، وكل من نوجي بلغه أية لغة كانت فإنه وارث لنبي ذلك اللسان وهو الذي تسمعه على السنة هذه الطريقة أن فلاثا موسوي وابراهيمى، وإدريسى، ومنهم المناجي بلغتين وثلاثة وأربعة فصاعدا» (13) أي أنه يرث عدة أنبياء، وهنا تتجسد فكرة وحدة الأديان.

للإنسان الكامل رمز ومفهوم حسي ونموذج معنوي، أما الرمز فهو آدم عليه السلام، وأما المفهوم الحسي فهو محمد صلى الله عليه وسلم، وأما النموذج المعنوي فهي : الحقيقة المحمدية «ولما كان هذا النشأ المحمدي بهذه المنزلة العلية، وكان الأصل الجامع لجميع البشرية، وصح له المجد الذي لا ينبغي لغيره وأقامه الحق تعالى وصوره وخيره عدلا وفضلا ونقلا وجمعا وفضلا وأراد أن يتم مكرمه حسا كما أتمها نفسا، فأنشأ لها في عالم الحس صورة مجسمة». (14) فالحقيقة المحمدية كانت قبل آدم وتجسدت مع محمد الشخص.

بالعلم والمعرفة والايمان يعرف الإنسان نفسه فيعرف ربه وبين هذا وذاك يدرك بأن أسبابا وجوده - السموات والأرض - إن هي إلا بسببه ولأجله وجدت. فلن يشرك حينئذ بربه أحدا، ولن يستعبد أحدا فيخرج من درك الإنسان الحيوان الى درجة الإنسان الكامل آدمي، موسوي، عيسوي ومحمدي، كل ذلك بالعلم والمعرفة.

عندما يعرف الإنسان ربه تتحقق له تجليات عديدة منها تجلي المعية، فالإنسان باعتباره نسخة جامعة للموجودات كان فيه من كل موجود حقيقة «فتلك الحقيقة تنظر الى ذلك الموجود وبها تقع المناسبة وهي التي تنزل عليه فتمت ما أوقفك الحق مع عالم من العوالم وموجود من الموجودات فقل لذلك لموجود بلسان تلك الحقيقة أنا معك بكليتي ليس عندي غيرك وأنت صادق وأنا معك بالذات ومع غيرك بالغرض فإنه يصطفيك ويعطيك جميع ما في قوته من الخواص والأسرار هكذا مع كل موجود». (15) وهكذا يدرك الإنسان حقيقته الأنطولوجية، الوجودية بإدراكه لنفسه ثم ربه ثم جميع الموجودات بالعلم والمعرفة التي ستجسد في قيم حتى يتأتى لها إدراك كما لها فتنال السلام ويتحقق لها الكمال.

**قيم الإنسان الكامل الأخلاقية والجمالية :**

إن أخلاقيات الإنسان الكامل لا تحصى فهو مرآة الحق عليه مدار العالم له رقائق ممتدة الى جميع قلوب الخلائق بالخير والشر على حد واحد» (16).

الإنسان الكامل مسالم لا تستهويه قوته لاستغلال ضعف الآخرين لأنه من غالب ضعيفا فإنما يريد أن يعلي همته : ويستدرجه، ومن غالب من هو أقوى منه فهو جاهل ومن لا يقاوم إذ انزل الى المقاومة فغلب فهو الغالب» (17) لأن كما له الإنساني يوجب عليه التكامل والترابط مع غيره من البشر وبإقي الموجودات بالحب والإنسجام، فلاصرع بينه وبين غيره من الناس ولاصرع مع الطبيعة، وجهاده الأكبر هو جهاد هوى النفس، حتى تتحلى بالأخلاق الإلهية وتتجلى فيها، ذلك لأن الإنسان الكامل صوفي والتصوف هو «... الخلق الإلهية ...» (18).

الإنسان الكامل متواضع مهما تكبر غيره هو لأنه بتواضعه الرأسخ سيؤثر في نفس المتكبر لأن حقيقة عبد، ولأن النفس ترتاح الى أصلها المتواضع الفطري فيها من حيث لا تشعر، وبهذا التواضع وتأثير النفس المتواضعة في النفس المتكبرة، ترتبط هذه الأخيرة بالنفس المؤثرة وتحبها فتقترب منها وتشتهي خدمتها فتستعد لسماع الحقيقة، حقيقة السياسة، حينئذ تصبح النفس المؤثرة معلمة، تنتقل الرياسة إليها وهي متحققة بالله فتردها الى الله» (19) إذا السيادة لله ولعباده المتواضعين، الذين لا يحقرون ولا يخذلون ولا يظلمون لأن الظلم حرمه الله على نفسه وجعله محرما على عبادة وذلك في قوله «ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرما بينكم فلا تظالموا» (20).

إن الظلم عند ابن عربي بديله الرحمة الذي تسع كل مخلوق دون استثناء، أو تمييز بين مؤمن وكافرا ! «ارحم من

وافق الحق ومن خالفه، رحمة له، فإن الكافر إذا رحمه المؤمن خفف الله عنه وإذا رحم الكافر المؤمن وفي الله له، الكل خلق الله ومضاف إليه فتعظيم خلقه تعظيمه فطوبى لمن رحم خلقه» (21)

الإنسان الكامل غير عادل إذا استطاع لأن ميزانه بينه وبين ربه وبينه وبين الخلق التطفيف إذا أعطى والخسران إذا أخذ وإن لم يقدر فيعدل ويوفي لكل موجود حقه. كما أن عالمه مقام على الجود ينتشر في وجوده الصلاح فيجود فيه الأغنياء على الفقراء بما في أيديهم ويجود الفقراء على الأغنياء بالقول منهم فيصلح ظاهر الفقير ويصلح باطن الغني (22).

إن الناس الكاملين في الإنسان الأكبر متحابين في الله، حباً غاية في حد ذاته، لا يرتبط بطلب أو بسبب من الأسباب المنقطعة، هو حب ينتج إحسان المحبوب في قلب المحب، إنه «حب الحب» (23). كما أن نفس الإنسان الكاملة تحب الرحمان لرحمته المطلقة، والقهار لقهره المطلق والغفور لمغفرته المطلقة، والجميل لجمله المطلق. إنها تحبه بأدراكها لأسماؤه الحسنى ولتجليها فيها، وتدرك «نغمات الألحان والأصوات الحسان فتجني حنين الغيب إلى حضرة الحبيب، فتسمع فتطيب فتتحرك عن وجد صادق فتجد فتحمد فتحصل لطائف الأسرار وعوارف المعارف ولذات المشاهد والمواقف فترجع إلى وجودها فتتصرف على قدر شهودها» (24). إن النفس صاحبة هذا التجلي (تجلي السماع والنداء) فرحة سعيدة نبيلها لأقصى السعادة، وبأدراكها للسلام في دنياها بمشاهدتها وفي الآخرة ستكون من المقيمين في دار السلام وستخاطب من جملة المخاطبين من الله عز وجل : «سلام عليكم يا معشر عبادي المسلمين، أنتم المسلمون وأنا السلام، وسأريكم وجهي كما سمعتم كلامي» (25)\*

إن أخلاق الإنسان الكامل، أخلاق جبرية محمودة لأنها انسجام كوني وانقياد نحو الملا الأعلى عن طواعية بشرية ومحبة، فهي وإن كانت صادرة عن المشيئة الإلهية، إلا أن هذه المشيئة ناتجة عن طبيعة الأشياء ذاتها. فالجبر جاء نتيجة شعور النفس بضرورة الوحدة التي «تقوم على أسس من التذوق الروحي، وهو تذوق ذاتي حر يضحى (فيه الفرد) بحريته الفردية لذلك النظام الكوني الواحد، وهي نوع من الانسجام الحر مع تلك الوحدة» (26) المتحققة بحب الله، لأنه كل ما أحب الإنسان الله بآدله الله بحب أكثر منه، ومتحققه بالمعرفة والعلم اللذان بهما يتقرب الإنسان من الله، وكل من تقرب من الله تقرب الله منه أكثر، فيكون هو سمعه وبصره ... حينئذ يكون هو السلام يدخله في منزل الألفة الذي لا يدخله غير موجود على صورته.

إن الإنسان الكامل هو العارف بالأسماء الإلهية المدرك لها، المتجلية فيه وله، ليس سفاكا للدماء ولا مفسدا في الأرض كما تصورت الملائكة خطأ، لأنها بعد اعتراضها اعترفت بأن لا علم لها. أما السفاح المفسد في الأرض فهو الإنسان الحيوان الذي لا انسجام

في باطنه تتصارع بداخله الأسماء المتضادة فتبقى روحه مرتبطة بعلائق المادة، سقيمة غير معافاة، شقية لا تنال الكمال ولا السعادة الحقة، حبها وشوقها في غير محلها، ليست سليمة ولا السلام حالاً بها.

إن صاحب هذه الروح إنسان بالشكل لا بالحقيقة، أما الإنسان الحق فهو الإنسان الكامل، المعافي، السليم والخالد في دار السلام تحقق عليه كلمة السلام.

خلاصة القول أن الإنسان الكامل عند ابن عربي هو : السلام قبل أن يوجد. وهو تجل للسلام عند ما وجد في الكون. أن السلام فيه فطري. وعدم السعي نحو التحليات يغيب عنه السلم. وهذا الغياب يتحول الى حضور وظهور بمعارف وعلوم واضلامه الالهية\*.

\* ملاحظة : كان يمكن إجراء مقارنات كثيرة بين افكار ابن عربي وافكار من الاديان الشرفية القديمة لقلة العنف فيها، ومقارنات بالعقائد والافكار الصينية ثم اليونانية من فيثاغورس، هرقليس ووحدة الازداد فالسفسطائية ونزعتها الانشائية وصولاً الى أفلوطين ثم مع الفلاسفة المسلمين ثم مع الاوروبيين ككينيثز وصولاً الى الفترة المعاصرة لكن أثرنا التعرض اليه كما هو ايماننا منا بأنه مازال كنزاً مخفياً يحتاج الى الاكتشاف قبل المقارنة.

#### الهوامش

- (1) ابن منظور - لسان العرب - دار المعارف ج III ، ص 2077
- (2) جميل صليبا - المعجم الفلسفي - دار الكتاب اللبناني - 1978 - ج 1 ص 664
- (3) الجرجاني - التعريفات - دار الكتاب العلمية - بيروت - ط. 1 - 1983 ص 120
- (4) ابن عربي - رسالة حلية الابدال - تحقيق د. عبد اللطيف محمد العبد - الطبعة الاولى 1977 - دار النهضة القاهرة - ص 11.
- (5) ابن عربي - نقش الفهرص - ص 1
- (6) ابن عربي - الفتوحات المكية - ج III ص 119.
- (7) ابن عربي - كتاب التراجم - ص 31.
- (8) د. طلعت مراد بدر - ابن عربي الفيلسوف المفترى عليه - (المجلة العربية للعلوم الانسانية - جامعة الكويت 1986 - ص 25.
- (9) ابن عربي - نقش الفهرص - ص 2.
- (10) ابن عربي - التجليات - ص 41.
- (11) ابن عربي - رسالة لا يعول عليها ص 13.
- (12) ابن عربي - التراجم - ص 10.
- (13) ابن عربي - رسالة الأنوار - ص 14.
- (14) د. طلعت مراد بدر - ابن عربي الرجل المفترى عليه - ص 26.
- (15) ابن عربي - كتاب التجليات - ص 11.
- (16) ابن عربي - التراجم - ص 31.
- (17) ابن عربي - كتاب الشاهد - ص 9
- (18) ابن عربي - اصطلاح الصوفية - ص
- (19) ابن عربي - الوصية - ص 4.
- (20) ابن عربي - مشكاة الأنوار - ص
- (21) ابن عربي - التراجم - ص 13.

- (22) ابن عربي - التجليات - ص 15.  
 (23) ابن عربي - رسالة لا يعول عليها - ص 6.  
 (24) ابن عربي - التجليات - ص 15.  
 (25) ابن عربي - مشكاة الأنوار - ص 5.  
 (26) د. طلعت مراد بدر - ابن عربي الفيلسوف المفترى عليه (المجلة العربية للعلوم الإنسانية) - ص 33.

\*) Allah dira en s'adressant aux Gens du Paradis : «Paix sur vous, ô assemblée de mes serviteurs Musulmans ! vous êtes les soumis et moi je suis la paix. Ma maison est la maison de la paix je vous montrerai ma face de même que vous avez entendu ma parole."

### قائمة المصادر والمراجع المعتمدة

#### ١- المصادر :

- (1) ابن عربي : رسالة الأنوار - مطبعة جمعية دار المعارف العثمانية - حيدر آباد الدكن سنة 1948.
- (2) ابن عربي : كتاب التجليات - مطبعة جمعية دار المعارف العثمانية - حيدر آباد الدكن سنة 1948.
- (3) ابن عربي : « كتاب التراجم : مطبعة جمعية دار المعارف العثمانية - حيدر آباد الدكن سنة 1948.
- (4) ابن عربي : رسالة حلية الإبدال : تحقيق د.عبد، للطيف محمد العبد الطبعة الأولى سنة 1977 النهضة القاهرة.
- (5) ابن عربي : كتاب الشاهد : مطبعة جمعية دارالمعارف العثمانية - ط.1. صدرأ سنة 1948.
- (6) ابن عربي اصطلاح الصوفية : مطبعة جمعية دار المعارف العثمانية - ط.1. صدرأ سنة 1948.
- (7) ابن عربي : الفتوحات المكية : تحقيق عثمان يحيى - الهيئة المصرية العامة للكتاب /4.
- (8) ابن عربي رسالة لا يعول عليه : مطبعة جمعية دار المعارف العثمانية - ط 1 حيدر آباد الدكن سنة 1945.
- (9) ابن عربي : نقش الفصوص مطبعة جمعية دار المعارف العثمانية - حيدر آباد الدكن سنة 1948.
- (10) ابن عربي : مشكاة الأنوار، La niche des lumières، ترجمة محمد نالسا des éditions 1983 de l'œuvre
- (11) ابن عربي : الوصية مطبعة جمعية دار المعارف العثمانية - حيدر آباد الدكن سنة 1948.

#### ب) المراجع

- (12) د. طلعت مراد بدر ابن عربي الفيلسوف المفترى عليه (المجلة العربية للعلوم الإنسانية جامعة الكويت المجلد 6 - 1986

#### ج) المعاجم :

- (13) ابن منظور لسان العرب دار المعارف 6/6
- (14) الجرجاني التعريفات دار الكتب العلمية بيروت ط. 1 - 1983 ص 120.
- (15) جميل صليبا - المعجم الفلسفي دار الكتب اللبناني - 1978 - 2/2.